

عصر الولاة

يطلق مصطلح عصر الولاة في التاريخ الإسلامى ، على الفترة الواقعة بين تمام الفتح الإسلامى للبلد ، وقيام أول دولة مستقلة فيه ، أيا كانت صورة هذا الاستقلال ، فحتى في الحالات التى يكون ذلك الاستقلال فيها اسماً أى داخلاً في إطار التبعية العامة لدولة الخلافة ، فإن هذا الوضع الجديد يستتبع تغيرات أخرى في نظام البلاد الداخلى وعلاقته بالخلافة ، بل إنه في الحالات التى عاد البلد فيها إلى التبعية للخلافة ، فإن هذه التبعية لا تكون تامة قط كما كانت قبلاً ، وفي العادة إذا تغيرت الأوضاع السياسية في بلد فلن تعود إلى ما كانت عليه قبلاً قط .

ففيما يتعلق بمصر مثلاً ، ينتهى عصر الولاة بقيام الدولة الطولونية في مصر سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ومع أن ابن طولون لم يستقل استقلالاً تاماً ، فإن مصر لم تعد ولاية عباسية تامة الخضوع للدولة كما كانت قبلاً ، حتى عندما زالت دولة بنى طولون وعاد الحكم العباسى المباشر على يد القائد العباسى محمد بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م .

وفيما يتعلق بالمغرب لا ينتهى عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة لأقطاره المختلفة ، فقد انتهى عصر الولاة في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية الخارجية الإباضية سنة ١٦٤ هـ / ٧٨١ م ، وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م ، وفي أفريقية بقيام دولة بنى الأغلب سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م .

ولقد طال فتح العرب للمغرب كما رأينا ، وفي أثناء مراحل هذا الفتح دخلت على البلاد تغيرات بعيدة المدى ، فأسلم الكثيرون من أهلها وانضموا إلى جيوش الإسلام وأصبحت لهم بذلك كل حقوق العرب المجاهدين في سبيل الإسلام ، وانتقلت إلى المغرب جماعات من العرب واستقرت في نواحيها واختلطت بأهلها وصاهرتها وبدأ يظهر جيل بربرى مسلم مستعرب ، تطلع إلى أن يكون له نصيب

في إدارة بلاده . ثم إن العرب أنشأوا لأفريقية قاعدة إسلامية تحولت بعد قليل إلى مركز إشعاع إسلامي .

وقامت في مساجدها حلقات الدراسات الإسلامية ، وبدأ الجو الثقافي العام في البلاد يتغير بتأثير الإسلام والعربية . ثم إن قيام القيروان مصراً عربياً مغربياً إسلامياً ، ذا تنظيم مدني واجتماعي جديد ، كان نقطة بداية لتغير عام في أوضاع المدن في أفريقية والمغرب كله . فهذه البلاد لم تعرف قبل العرب إلا المدن الإغريقية التي تلاشى طابعها الإغريقي وخربت وتحولت إلى قرى ، والقواعد العسكرية الرومانية التي كانت تنشأ إلى جوارها مدن رومانية صغيرة ثم القصور ، وهي القرى البربرية التي تتكسد فيها المباني ويحيط بها السور . فجاء العرب بهذا الطراز الجديد من المدن الإسلامية القابلة للتطوير والتعديل بحسب حاجات البلاد وأهلها ، فأخذ الكثير من قرى المغرب وقصوره يتحول إلى مدن إسلامية ذات جاليات عربية وجماعات إسلامية ومساجد ومكاتب لتدريس العربية ونشر قواعد الإسلام .

كل هذه كانت تطورات تسير سيراً حثيثاً أثناء عملية الفتوح ، لأن المغرب الذي عرفه عمرو بن العاص يختلف كل الاختلاف عن المغرب الذي عرفه موسى ابن نصير . ولم يتسع المجال أثناء دراسة الفتوح لدراسة هذه التطورات ، ولهذا فلا بد من الإلمام بها ونحن ندرس المغرب في عصر الولاة .

ولا يمكن النظر إلى فتوح العرب للمغرب منعزلة عن غيرها من فتوح الإسلام التي عاصرتها ، فهذه كانت عملية واحدة لها أصداء بعيدة وتأثيرات متبادلة ومشاركة بين كل البلاد التي فتحها المسلمون ، ولا بد أن نأخذ في الاعتبار أيضاً طبيعة الفتوح الإسلامية ، فهي لم تكن مجرد غزوات ولا غارات ، وإنما كانت فتوحاً بالمعنى اللفظي لهذا المصطلح ، أي فتح أبواب البلاد للإسلام وإدخال أهلها في الإسلام وتحويلها إلى بلاد إسلامية ، عقيدة وحضارة وعربية إذا تيسر .

وقد كانت هذه الفتوح بطبيعتها من أكبر أسباب متاعب العرب ، لأن الشعب من الشعوب إذا دخل في دولة الإسلام وأصبح شعباً مسلماً أو في ذمة الإسلام ، طالب الدولة بما يفرضه الإسلام نفسه من العدالة وحكم الشرع الإسلامي . ففي

حالة دخول ناس من هذه الشعوب في الإسلام نجد أنهم يصبحون مواطنين في دولة الإسلام ، لهم كل حقوق العرب وعليهم كل واجباتهم ، وبطبيعة الحال لم يكن العرب مستعدين للاستجابة لهذه المطالب ، لا لأنهم كانوا طامعين أو مسلمين غير صالحين ، بل لأن هذه هي طبيعة البشر ، فالعربي الذي فتح مصر مثلاً لم يكن مستعداً بعد تمام الفتح للتنازل عن شخصيته كفاتح ، وسيد له ، كما كان يتصور ، حق السيادة على الشعب الذي فتحه ولم يكن كذلك مستعداً لمنح أولئك المسلمين الجدد كل حقوقهم ومساواتهم بنفسه ، فهذه دولته والدين الإسلامي هو الذي حمله وقاتل في سبيله ، ثم إنه عربي يتكلم لغة القرآن وقومه قوم الرسول ﷺ ، فكيف نطالبه بالتنازل سريعاً عن امتيازاته ؟ ولهذا قلنا إن المشكلة الكبرى التي واجهت العرب في عصر الفتوح هي الإسلام نفسه ، ومن الغريب أننا نلاحظ في أكثر من مناسبة أن المسلمين الجدد يتمسكون بالإسلام ويهتمون العرب بالانحراف عن سبيله ، ويطالبونهم بتطبيق قواعد الإسلام ويحتجون عليهم بنص القرآن ، لا لأن العرب كانوا لا يذكرن نصوص القرآن ، بل لأن ما كان القرآن يطلبه منهم ، كان يحتاج إلى وقت لكي يهضموه ويتمثلوه ويطبقوه . فهم أولاً وقبل كل شيء بشر ، وقد كانوا في حاجة إلى وقت لكي تدخل قلوبهم بشاشة الإسلام ورحمته وإنسانيته ، وكان الكثيرون جداً من أولئك العرب الفاتحين قد أسلموا على عجل ، لم تتح لهم فرصة التفكير والتأمل حتى يصبح كيانهم إسلامياً أو مسلماً حقاً ، ولهذا فقد انصرفوا عن جادة الإسلام ، لا عن كفر أو سوء نية بل عن سوء فهم وقلّة علم ، فظلت الجاهلية قائمة في نفوسهم زمناً طويلاً .

وعندما ننظر إلى المشاكل التي واجهت المسلمين في مهاجرهم الجديدة ، وننظر إلى الخلفية التي تكون فيها رجال ، مثل الحجاج بن يوسف الثقفي أو زياد ابن أبيه أو عبيد الله بن زياد ومن إليهم من كبار ولاة الدولة الأموية ، نجد أن نوع التكوين الذي حصلوا عليه ليس فيه ما يعين على مواجهة مشاكل الحكم . فمثلاً إذا كان هناك وال على العراق مثل الحجاج الذي يوصف بأنه ظالم وجبار فنلاحظ أن ذلك الرجل موظف عام ، أي أنه يتصرف في الحكم بحسب ما يصدر إليه من تعليمات الخليفة ، أو كما نقول اليوم الحكومة المركزية ، وهذه الحكومة المركزية

تطالبه بمبالغ معينة من الأموال ، وهى تطالبه أيضا بمحاربة الخوارج من ناحية وبمواصلة الفتوح من ناحية أخرى . وهنا نلاحظ كيف أن ذلك الرجل كان أمام مسؤوليات لا يستطيع النهوض بها كلها على الوجه المثالى ، فإن الجبايات التى تحصل له لا يمكنه إنقاص مقاديرها ، ثم إنه لابد أن يدفع منها رواتب لجنده ، ومن ناحية أخرى كان عليه أن يرسل فائضاً من المال للدولة المركزية ، فى حين أن من يحكمهم فى العراق لا يستطيعون أداء الأموال المطلوبة منهم ، أو كانوا يرون الإسلام وهو دين العدالة لن يتشدد رجاله معهم فى شئون الجبايات ، ومن ثم فقد كانوا يرون ألا يجبى منهم مال الجزية ، ثم لأن مطالب الحياة كانت ترتفع ، لأن تكاليف حياة الناس تزداد كلما ارتفع مستواهم العام ، ولهذا فقد كانوا يطالبون بالتخفيف إلى أقصى حد ، فى حين أن مطالب الدولة المالية كثيرة ومتزايدة حتى لا تستطيع التخفيف ، فكيف يوفق الرجل بين هذه المتناقضات كلها؟ .

وفى المغرب نلاحظ أننا أمام شعب يختلف عن كل ما واجه المسلمون (العرب) فى غيره من البلاد التى فتحوها ، فهنا شعب يشبه العرب من حيث التكوين الاجتماعى و الذهنى ، فهنا قبائل ورجال وشيوخ قبائل كما هو الحال فى جزيرة العرب .

والتفاهم هنا بين الحاكم والمحكوم يختلف فى طبيعته عن التفاهم مثلاً بين الحاكم والمحكوم فى مصر ، حيث العلاقة هى علاقة حاكم بفلاحين ، أى أصحاب أرض تخرج غلة معينة محددة إلى حد ما ، أما فى المغرب فقد كان ولا بد أن يتغير معنى الرئاسة ، ولا بد أن تختلف علاقة الحكم بالمحكوم فى نوعها فهنا علاقة زمالة فى السلاح كما نقول ، ولا يستطيع العربى أن يخاطب البربرى الذى أسلم وحارب فى صفوف المسلمين كما يخاطب مزارعاً يقدم له غلة أرض ، ومن هنا فقد كان لابد من أن توضع سياسة خاصة بالمغرب ، ولكن من الذى يضع هذه السياسة ؟ هنا لا نجد مجالس أو لجاناً للدراسة ، وإنما نجد أمامنا حكماً مطلوب منهم أن يجدوا حلولاً ، وحلولاً ناجحة لمشاكل عسيرة على الحل أو على الأقل يتطلب حلها وقتاً ، ولكن حاجات الناس لا تنتظر ، وخصوصاً إذا كانت

حاجات معيشة ، فنحن لا نستطيع أن نقول للبربر وهم شعب كبير : انتظروا حتى تدرس الدولة مطالبكم ، ومن ناحية أخرى نجد أن الصراع في مركز الدولة على الحكم كان له أثر بعيد جداً على الأوضاع في الأقاليم ، فالمنهزمون في الصراع على السياسة يفرون إلى الأقاليم حيث يكونون بعيدين عن متناول الدولة ثم إن البلاد المفتوحة فيها مجالات واسعة للعيش ، ومن تلك الجماعات المنهزمة مثلاً الأنصار في المدينة ، فهؤلاء بدأت هجرتهم الجماعية إلى الولايات المفتوحة عقب انهزامهم في مناقشة المنافسة على الخلافة في سقيفة بني ساعدة عقب انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم توالى عليهم بعد ذلك الضربات من قبل خلفاء بني أمية ، وخاصة ما أصاب المدينة أيام عبد الملك بن مروان ، فنتج من ذلك هجرة جماعية من المدينة إلى الأقاليم المفتوحة ، كذلك العلويون ثم الخوارج ، هؤلاء جميعاً كانوا عندما يستقرون في ولايات مفتوحة ، يستقرون أعداء للدولة المركزية، ويجتهدون في إثارة المشاكل ضدها وتشويه سمعتها . وكان أكثر العاملين في ذلك هم الخوارج لأنهم مورتورون من الدولة ولديهم حجج وآراء لتبرير موقفهم ، هؤلاء كانوا لا يكفون عن تحريض الناس على الحكومة الأموية وإطلاعهم على أحكام القرآن كما يفسرونها هم . وتفسيرهم يناسب آراء أهل الولايات ويرضى مطامحهم ، وفي حالة ما إذا كان الخارجى يتحدث إلى مقاتلين يتحول الغضب وعدم الرضا إلى تمرد عسكري ، وهذا هو الوضع الذى نجد أنفسنا في مواجهته بعد تمام فتح المغرب والأندلس .

الفتنة المغربية الكبرى :

عندما تم فتح المغرب والأندلس كانت المشاكل قد توالى وتكاثرت ، فإن الدولة الأموية في سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م ، كانت تعاني تغييراً حاسماً في أوضاعها في الداخل ، وفي علاقتها برعاياها في مركز الدولة والأقاليم ، فإن عمر بن عبد العزيز الذى حكم نيفاً وسنتين من سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م إلى سنة ١٠١ هـ / ٧١٩ م ، غير الوضع المالى في الدولة تغييراً تاماً ، عندما أنزل أو خفف مقادير الجبايات وألغى الأموال التى كان الموالى يشكون منها ، والنتيجة أن الإدارة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز كان لابد لها من خليفة قادر يستطيع مواجهة

الوضع الجديد ، ولكن الخلفاء الذين تولوا كانوا أبعد ما يكونون عن إدراك هذه الحقائق ، وبطبيعة الحال عندما يعجز الحاكم عن حل المشاكل بالمنطق أو بالعمل الإدارى الخالص ، يلجأ إلى القوة والقوة تزيد المشاكل سوءاً ونادراً ما تحل مشكلة ، وفيما يتعلق بالمغرب نجد أنه بعد تمام الفتح وبداية عصر الولاة يختار الخليفة سليمان بن عبد الملك رجلاً عربياً من مدرسة الحجاج ، يسمى يزيد بن أبى مسلم ، فأراد هذا أن يسير في أهل المغرب بسيرة الحجاج مع أهل العراق ، ناسياً أنه في المغرب يتعامل مع مقاتلين مسلمين ورفقاء سلاح ، فكانت النتيجة أن قتلوه ، وواجهت الدولة طلائع ثورة في إقليم من أقاليمها الكبرى ، فلجأت إلى معالجتها باللين ، فوافقت على التنازل عن الطلب بأخذ ثأر الوالى المقتول ، وتركت أهل أفريقية يختارون لأنفسهم والياً جديداً مؤقتاً ثم اختارت والياً على درجة كبيرة من الحكمة فاستقرت الأمور بعض الشيء ولكننا نواجه في المغرب مشكلة غريبة نعرفها في نواح أخرى من نواحي الدولة ، ولكنها هنا في المغرب والأندلس تأخذ شكلاً خطيراً ، لأن هذه المشكلة كانت تستعصى على الحل المقبول أمام الظروف الخاصة للمغرب والأندلس ، تلك هى مشكلة النزاع بين العرب الشاميين واليمنيين أو قيس وكنب (القيسية والكلبية) .

هذه المشكلة ، مشكلة القيسية والكلبية لم يعرفها العرب قبل الإسلام ، ولكنها نشأت عن طبيعة الظروف التى سادت أيام بنى أمية ، فإن بنى أمية أقاموا دولتهم على العرب ، وكان كل رجالهم ومقاتليهم من العرب ، وهؤلاء العرب هم عرب الشام ومن انضم إليهم . وعرب الشام كانوا ينقسمون إلى مجموعات قبلية بعضها قيسية وبعضها كلبية ، فكان بنو أمية لكى يضمنوا الاستقرار وولاء الجند يلجأون إلى التفرقة بين الجانبين فيحابون القيسية على اليمينية مرة ، ويحابون اليمينية على القيسية مرة أخرى ، فآثاروا بذلك مشكلة عويصة جداً لأنهم أحيوا العصبية القديمة ولكن على نطاق الدولة الواسع ، ففي العصر الجاهلى كانت العصبيات عداوات قبائل ، أى أنها كانت محدودة من حيث العنف واتساع المجال ، ولكن بعد الإسلام لم تعد القبائل مجرد قبائل ، بل أصبحت أحلافاً واسعة من القبائل ، ثم إن موضوع النزاع في العصر الجاهلى كان صغيراً

يمكن تلافيه ، ولكن بعد الإسلام أصبح موضوع النزاع ضخماً جداً ، وهو السيادة على الأقاليم أو على الدولة كلها ، وبهذه النسبة تزداد حدة الصراع ويصبح عسيراً على الإرضاء ، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك مشاكل العرب البلديين (عرب الأمصار) والعرب الشاميين (أى عرب الأقاليم) وعرب الدولة (أى جندها الرسمي العربي) .

ولا ننسى هنا أثر الخوارج ومن إليهم من رجال الأحزاب الساخطة على الدولة العاملة على تأليب نفوس الناس وإثارتهم على الحكومة ، وفي النهاية ينبغي ألا ننسى أن هذه المشاكل عندما ثارت ، كان العصر الذهبي للدولة الأموية قد ولى ، وأصبحنا أمام خلفاء لا يتميزون بأى قدرة ، ولا نجد فيهم من له كفاية إلا اثنين ، هشام بن عبد الملك وقد بذل ما يستطيع لإصلاح الناحية المالية ثم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وكان رجلاً قادراً ولكنه جاء بعد الأوان فلم يستطع أن يعمل شيئاً .

تلك هى الخلفيات التى ينبغي أن نضعها نصب أعيننا عندما ندرس تاريخ الدولة الإسلامية أيام الانتقال الحاسم من بنى أمية إلى بنى العباس .

وفي المغرب نجد أن هناك عوامل زادت غضب الناس على الدولة حدة وعنفاً ، وأهم هذه العوامل هم الخوارج .

فالخوارج الذين انهزموا في قلب الدولة ، وقتل منهم الألوف بسيفوف رجال مثل الحجاج بن يوسف والمهلب بن أبى صفرة من الأزدي (يمنية) اضطروا إلى الهجرة إلى الجهات التى لا تدركهم فيها يد الدولة وخاصة في عمان واليمن والمغرب .

هؤلاء الخوارج كانوا مذاهب شتى ، فمنهم المتطرفون الذين كانوا يرون أن الدولة الإسلامية أو الخلافة القائمة ، دولة غاصبة هى وكل من أيدها ، فالمزارع أو التاجر الذى يدفع الضرائب للدولة يعتبر خارجاً عن الإسلام مثل الخليفة ، وهؤلاء هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، الذين أعلنوا الحرب على الدولة الإسلامية وجماعة المسلمين جملة ، ودعوة هؤلاء تلقى قبولا من ناس مثل البربر .

وخاصة بربر المغرب الأقصى الذين كانوا يعيشون خارج الحدود الرسمية للدولة الأموية .

ولكن هذه الدعوة المتطرفة لا يمكن أن تلقى قبولاً من جبهة واسعة . لأنها دعوة لكل إنسان للخروج بالسلاح في وجه النظام القائم ، لهذا انحصر مداها ، وظهرت فرقة أخرى هي الصفرية لقيت قبولاً أكثر ، لأن أصحابها كانوا يقولون إن العدو الوحيد هو الدولة ، أما من يؤيدونها فليسوا أعداء للإسلام وإنما هم متساهلون في أحكام الإسلام وحسابهم على الله ، فهم كفار نعمة لا كفار إيمان ، في حين أن رجال الدولة كفار إيمان ، فالخوارج الصفرية يتساهلون مع عامة الناس ولكنهم يقاطعونهم ، فلا متاجرة ولا معاملة ولا مصاهرة .

هذا المذهب لقي قبولاً أكثر ، ولكن مذهباً خارجياً آخر وهو مذهب الإباضية (لعبد الله بن إباح) لقي قبولاً أكثر لأنه لا يدعو إلى القيام على الدولة وإنما يدعو الناس الذين يؤمنون بأراء أصحابه ، إلى إقامة نظام سياسى لهم فى النواحي التى لا تستطيع الدولة الوصول إليها ، وهم يأذنون لاتباعهم بالتعامل مع الناس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى .

هذا المذهب (الإباضى) لقي قبولاً بين الناس ، وهو الوحيد من بين مذاهب الخوارج الذى قدر له أن يعيش إلى يومنا هذا ، والإباضية قريبون جداً فى فهمهم للشريعة من أهل السنة ، ولهذا يحسبون عادة ضمن أهل السنة ، وسنرى بعد قليل أنه على أساس المذهب الخارجى الإباضى قامت دولة من أكبر دول المغرب هى دولة عبد الرحمن بن رستم أو الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط أو ما يعرف الآن باسم الجمهورية الجزائرية .

تفاصيل الفتنة المغربية الكبرى :

ندخل الآن إلى بعض تفاصيل الثورة أو الفتنة الكبرى التى اجتاحت المغرب فى نهاية العصر الأموى ، وخاصة فى أيام هشام بن عبد الملك . وفى هذه البلاد نجد كل هذه العوامل التى ذكرناها عاملة نشيطة . فبعد مقتل يزيد بن أبى مسلم بفترة قصيرة ، أقامت الدولة على المغرب وكذلك على الأندلس ولاة من أهل الحكمة

والمعرفة بتدبير الأمور ، ولكن المشاكل كانت تتزايد بصورة أصبح معها من العسير جداً على رجل واحد ، أيا كان أن يتلافها . ففي أيام هشام بن عبد الملك أقيم على المغرب وال ينتسب إلى اليمينية يسمى عبيد الله بن الحبحاب . هذا الرجل ولى سنة ١١٩هـ / ٧٢٧ م على كل غرب الدولة الإسلامية من حدود مصر إلى جبال ألبرت المعروفة خطأ بالبرانس بين إسبانيا وفرنسا ، وهذه مسئولية في غاية الضخامة ، فمهما كانت خبرة ذلك الرجل ، فهو لن يستطيع معالجة الموقف ، خاصة إذا ذكرنا أن وراءه في دمشق خلافة ضعيفة ، ولهذا نجد أنه في أثناء ولاية ابن الحبحاب تحول الغضب العام على الحكم العربي إلى إرادة ، والإرادة تحولت إلى ثورة ، لأنه وجد من يقود الناس .

بدأت الثورة في إقليم الريف الذي يسمى بإقليم طنجة ، سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م ، وانتشرت في قبائل بربرية كثيرة ضخمة ، كأنها الشعوب مثل برغواطة وغمارة ، وتولى زعامتها رجل يسمى ميسرة الفقير وبطبيعة الحال لفظ (الفقير) هنا ينبغي أن يفسر على أنه لقب أطلقه هو على نفسه ، لأنه يصور المثل الأعلى للمؤمن المجاهد الذي لا يطمع في شيء من متاع الدنيا ، وهو فقير إلى الله سبحانه وتعالى . ولكن المؤرخين وهم يمثلون في العادة وجهة نظر الدولة يحرفون اللقب إلى ميسرة الحقيير ويتهمون بالخروج عن الإسلام وأنه ابتكر قرآناً وكفر بالله ، إلى آخر هذه الدعاوى التي ينبغي أن نأخذها بكل حذر ، لأنها صادرة من جبهة معادية لميسرة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن مثل ذلك الرجل الذي تولى قيادة جماهير ضخمة غاضبة ، وأصبح إماماً ، كان عليه أن يحل على أساس ديني مشاكل لم يكن له علم بطبيعتها أو بالطول الممكنة لها ، فكان لابد أن يبتكر قدر المستطاع حتى لا يفقد الزعامة ، ومن بين مبتكراته من الممكن أن تكون آراء خارجة على الإسلام .

وعلى أي حال نلاحظ أن ذلك الرجل جمع جموعه وسار للقاء العرب ، لا على أنهم عرب وإنما على أنهم حكام ظالمون ، ففي صفوف ميسرة كان هناك عرب غاضبون على الدولة الأموية يريدون تغيير النظام ، ومعظم أولئك العرب من الخوارج ، وسارت الجيوش الثائرة على النظام القائم ، لا على العرب ، فهي ليست

فتنة بربرية ضد عرب ، وإنما هي ثورة داخلية في داخل الدولة الإسلامية ومقاصدها وأهدافها إسلامية ، وليس من الضروري أن تكون مظهراً لثورة إقليمية بربرية . ولم يجد عبيد الله بن الحبحاب جنداً كافياً ليرسله لمواجهة الثائرين ، فجمع من استطاع من الجند وأرسلهم بقيادة رجل يسمى خالد بن حبيب لملاقاة الثوار .

وكان هؤلاء قد تقدموا حتى بلغوا مجرى نهر شلف بزعامة ميسرة الفقيه ، وتردد ميسرة في اللقاء فقتله أتباعه ، لأنهم كانوا يرون التردد عاراً مثلهم في ذلك مثل بقية الخوارج ، وولوا على أنفسهم رجلاً يسمى خالد بن يزيد الزناتي ، فترجع إلى طنجة وعلى مقربة منها التقى بالجيش العربي في معركة حامية تسمى معركة الأشراف بسبب كثرة من قتل فيها من أشراف العرب ، وقد انهزم فيها العرب .

عقب هذا تمرد عرب القيروان على عبيد الله بن الحبحاب فاستدعاه الخليفة هشام ، وأرسل إلى أفريقية جيشاً عدته ٢٧,٠٠٠ مقاتل ، عليهم قائد من غلاة القيسيين الشاميين ، يسمى كلثوم بن عياض القشيري ومعه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، وسارت معهم جموع من قوات العرب البلديين الأفريقيين يقودهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، وكان النزاع بين الشاميين والبلديين شديداً ، مما أضعف القوة العربية . لهذا لا غرابة في أن ينهزم هذا الجيش الضخم ويقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبيدة ويفر بلج بن بشر مع آلاف من الشاميين إلى سبتة ، حيث يعتصمون بأسوارها بضعة شهور ، حتى يأذن لهم والي الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري ، في العبور إليه لكي يعاونوه في القضاء على ثورة قام بها البربر على العرب ، وكانت ثورة الأندلس هذه امتداداً لثورة بربر المغرب ، لأن بربر الأندلس كذلك كانوا ساخطين على الحكم الأموي وعلى من معهم من العرب في الأندلس ، لأن عرب الأندلس إذ ذاك كانوا أشد تعصبا للعروبة من عرب المغرب ، وكانت الخصومة بين الشاميين منهم والبلديين أعنف وأعمق ، وسنتحدث عن امتداد هذه الثورة البربرية في المغرب إلى الأندلس في مكانها من تاريخ الأندلس .

وبعد ذلك بقليل تمكن الخليفة هشام من أن يرسل جيشاً ضخماً من
الفرسان ، يقوده شامى متعصب يسمى حنظلة بن صفوان الكلبي ، ووصل هذا
الجيش إلى القيروان ووجدها مهددة باستيلاء الخوارج عليها . كان أولئك
الخوارج قد اختلف أمرهم وانقسموا قسمين : واحد يقوده عكاشة بن أيوب
الفزاري والثاني يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري ، وتجمع عرب القيروان
ومن فيها من العلماء والصلحاء وخرجوا للقاء الخوارج ، مدافعين عن مذهب
السنة وقاعدته أفريقية ، وفرق حنظلة السلاح عليهم وخرجوا معه ، فلقوا قوات
الخوارج يقودها عبد الواحد بن يزيد الهواري في موضع يسمى « الأصنام » على
بعد ٤٠ كم ، غرّبى القيروان وهزموه هزيمة منكرة بعد قتال عنيف . ثم ساروا
نحو القوة الخارجية الأخرى ، التي يقودها عكاشة بن أيوب الفزاري (من فزارة)
وهزموه في أوائل سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، وقد أنقذت هاتان المعركتان مصير
السنة في أفريقية والمغرب ، فثبتت أقدامها في أفريقية بعد ذلك ، وتمكنت فيما بعد
من إعادة سلطانها على المغرب كله ، وانسحبت قوات الخوارج إلى المغرب الأوسط
وانحازت المبادئ الخارجية من إباضية وصفيرية مع أصحابها إلى مناطق
صغيرة محدودة في جبال الريف أو في المغرب الأوسط أو في جبال نفوسة في إقليم
طرابلس وجزيرة جربة .

وهكذا انتهى ذلك الصراع الدموي بانتصار السنة في ولاية أفريقية ، وهي
تتكون ، كما قلنا مراراً ، من إقليم طرابلس الحالي وتونس وجزء من الجمهورية
الجزائرية يعادل محافظة قسطنطينية ، ولكن ما يهمنا ملاحظته هو أن مراكز
العمران الرئيسية في أفريقية وكانت تضم طرابلس (عدا جبل نفوسة) وأفريقية
والزاب ثم السهل الشمالي للمغرب الأقصى في حوض نهر « سبو » ، ثبتت على
مذهب السنة ، ولكنها أصبحت جميعاً تحت سلطان العرب البلديين . لأن العصر
الذهبي لبنى أمية وجند الشام انتهى بوفاة هشام بن عبد الملك وهو آخر الفحول
من خلفاء بنى أمية ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م . ولم يبق من عمر الدولة كلها إلا سبع
سنوات كلها فتن وتفكك ومصاعب .

في هذا الظرف خلا المغرب الإسلامي للعرب البلديين والبربر ، وقد تقاسموا
فيما بينهم ، فأما البلديون فقد سيطروا على أفريقية ، وأما البربر فقد سيطروا
على ما عدا ذلك ، وكان معظم هؤلاء البربر من الخوارج الزناتية ، أما البرانس أهل
الاستقرار وهم معظم السكان في المغرب ، فلم يمتد إليهم لهب الفتنة ، بنفس المدى

الذى امتد به في الزناتية ، وسيدخل أولئك البرانس مسرح الحوادث بعد ذلك شيئاً فشيئاً منشئين دول المغرب الكبرى : الأدارسة فالفاطميين ودولة بنى زيرى ثم دولة المرابطين ، أما الموحدون الذين سيكونون بعد المرابطين فقد أنشأ دولتهم المصامدة ، وهم بربر جبال الأطلس الكبرى وهو برانس حضر أيضاً ، وقد سبق أن قلنا إنهم لا ينتمون إلى صنهاجة وزناتة إنما هم من البرانس .

المحاولة الأولى للعرب البلديين للسيادة على أفريقية

إمارة عبد الرحمن بن حبيب وآله :

انتصرت الحكومة المركزية على يد حنظلة بن صفوان الكلبى في أفريقية وأوقفت الفتنة المغربية إلى حين ، ولكنها لم تصل إلى هذا النصر إلا بمعاونة العرب البلديين فإن هؤلاء برغم التحاسد الكبير بينهم وبين الشاميين ، أى الجند الرسمى للدولة العربية ، قاموا بنصيب كبير من القتال في سبيل استخلاص أفريقية من التأثيرين على الخلافة ، ولولاهم لما استطاع جند الخلافة الوصول إلى هذا النصر الحاسم الذى ذكرناه .

وفي هذه الفترة التى نتحدث عنها في النصف الأول من القرن الهجرى الثانى أى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، كانت العناصر المتنافسة على السلطان في أفريقية والمغربين الأوسط والأقصى كما يلي :

١ - العرب البلديون : وهم العرب المحليون وكانوا يعيشون جماعات متماسكة في المدن وحولها بصورة خاصة ، وكانت تؤيدهم جماعات من البربر الزناتية في الغالب ممن أسلموا واستعربوا فأصبحوا قوة سياسية محلية يحسب لها كل حساب وكانت مراكزهم القيروان وتونس والمسيلة وطبنة (في إقليم الزاب) .

٢ - العرب الشاميون : وهم رجال الحكومة المركزية ومن انضم إليهم من أهل المغرب ، في العاصمة القيروان وفي معسكرات الجند المنتشرة في نواحي إقليم أفريقية وخاصة تونس وطرابلس وإقليم الزاب ، وكانت أقوى عناصرهم في القيروان وتونس .

٣ - البربر : وكانت قواتهم تتكون من مجموعات قبلية بترية في الغالب ، يتزعمها عرب دخلوا في البربر وأصبحوا منهم ، أو بربر استعربوا وأصبحوا يحملون أسماء وألقاباً عربية ، ومن العسير أن نتبين حقيقة أمرهم ، وقد أنشأوا إمارات أو وحدات سياسية في المغربين الأوسط والأقصى ، ويمثلهم لنا في ذلك العصر رجل يسمى أبو قررة اليفرنى الزناتى ، وهذا الرجل أقام لنفسه دولة خارجية في إقليم تلمسان ونادى بأنه إمام بل اتخذ لقب الخلافة وصار يُدعى بأمر المؤمنين ٤٠ سنة ، ومثل هذا الرجل كثيرون من الزعماء المحليين الذين انتشروا كما قلنا في المغربين الأوسط والأقصى . وجدير بالذكر أن المذهب الخارجى لهؤلاء الناس لا يبدو في صورة واضحة ، فلسنا واثقين مما يقال من إباحيتهم أو صفريتهم ، والمهم لدينا أن خارجيتهم كانت سياسية أكثر منها مذهبية . ودليلنا على ذلك ولع رجالها بالوصول إلى السلطان السياسى في هذه البلاد الواسعة ، لأن الدول الخارجية الواضحة الشخصية والمذاهب التى ستظهر فيما بعد ، وستحدث عنها حديثاً مفصلاً ، تظهر مذاهبها الخارجية بغاية الدقة .

ولكن الذين انتصروا في حقيقة الأمر في هذا الدور من الصراع على السلطان السياسى في المغرب ، كانوا العرب البلديين ، لأن الشاميين كانوا يعتمدون أساساً على الدولة ، وكانت دولة بنى أمية إذ ذاك في أواخر سنوات حياتها ، ولهذا فإننا نلاحظ أن الشاميين سيجتمعون في جماعات صغيرة في معسكراتهم ، وعندما تقوم الدولة العباسية سينتقلون إلى ولائها في الظاهر على الأقل .

وكان يمثل العرب البلديين عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ابن نافع ، فقد كان يمثل بيتاً عربياً عريقاً طالقت اقامته في البلاد حتى صار من أهلها ، وجدير بالذكر أن نقرأ من كبار الفاتحين الذين ذكرناهم ، خلفوا وراءهم في المغرب بيوتاً عديدة الأفراد كثيرة الأتباع ، كان لها دور كبير في تاريخ المغرب فيما بعد . وأشهر هذه البيوت بيت عقبة بن نافع ويمثله عبد الرحمن بن حبيب وأولاده وإخوته وبيت موسى بن نصير وبيت أبى المهاجر دينار ، وهذه البيوت سيتجه كل منها اتجاهها خاصاً به : بيت عقبة بن نافع سيتجهون إلى السياسة ، أما بيت

أبى المهاجر دينار فسيتجهون إلى العلم ، أما أبناء موسى بن نصير فكان اهتمامهم بشئون المال والتجارة .

كان عبد الرحمن بن حبيب زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على سمعة جده عقبة بن نافع ولكنه كان على خلاف جده ، إذ أنه كان ذا طموح سياسى وكان رجلاً أنانياً وصولياً أتجه إلى الاستقلال بالبلاد ، ومن أسف أنه لم يكن يتمتع بملكات سياسية أو أخلاقية ، تمكن له من الثبات وتنظيم أمور دولة يمكن أن يكتب لها العمر ، فقد كانت الفرصة مواتية أمامه فسلطان الدولة تلاشى والناس فى حاجة إلى قائد يخلصهم من الفوضى ، وكان عبد الرحمن بن حبيب يستطيع فعلاً أن يقيم دولة كما فعل معاصره عبد الرحمن فى الأندلس ، ولكنه هجم على الإمارة دون استعداد ودون تفكير سياسى ودون سند أخلاقى ، ولم يحاول أن يكتسب الشرعية عن طريق الدخول فى طاعة الدولة الجديدة وهى الدولة العباسية ، وكذلك لم يحاول الاتحاد مع العناصر العربية الموجودة فى البلاد ، بل لم يفكر فى الاستعانة بالبربر ، ثم إنه كان بطبعه رجلاً قليل التدبير ، سريعاً إلى الحركة مما أضعف مركزه من أول الأمر ، وبعد أن أعلن نفسه أميراً على القيروان بعد قيام الدولة العباسية بقليل ، بعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور فبعث هذا يطالبه بالمال ، وقد أخطأ أبو جعفر فى ذلك فلم يكن هناك فى أفريقية مال فى ذلك الحين ، فالبلد فى فوضى والجباية معطلة ، ولم يكن من عبد الرحمن ابن حبيب إلا أن أرسل إلى أبى جعفر يسبه ويخرج عن طاعته . ومن الواضح أن الخروج على طاعة الدولة الإسلامية العامة فى ذلك الوقت لم يكن بأمر ذى بال من الناحية الفعلية ، ولكنه كان هاماً من الناحية القانونية ، لأن هيئة الدولة الإسلامية العامة وهى العباسية إذ ذاك ، كانت لا تزال قائمة فى النفوس ، ولم تكن جماهير المسلمين تقبل هذه الفكرة ، ولو أنه حصل على تأييد ولو إسمى من الخلافة القائمة لتعزز مركزه . ولكنه عندما انفصل عن الدولة لم يستند إلى أى سند شرعى (نلاحظ أن عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولته فى قرطبة ، ظل يخطب للعباسيين رغم ما نعرف من عدائهم لبيته ، ولكنه استمر على الولاء الاسمى لهم حتى ثبت سلطانه واكتسب الشرعية ثم انفصل عن الدولة) .

أما عبد الرحمن بن حبيب فخرج على الدولة من أول الأمر ، وحاول أن يخضع أهل البلاد بالقوة ونحن نعرف أن قوته لم تكن شيئاً يذكر ، وقد اعتمد أساساً على أخيه إلياس وكان قائداً عسكرياً قادراً ، ومن المؤكد أن إلياس كان أصلح من أخيه عبد الرحمن ، وهذا هو الذى جعل عبد الرحمن يخاف منه ، لأن إلياس كان يجمع حوله طائفة من الفرسان والمقاتلين ، وكان قد كسب ولاءهم واستطاع أن يقودهم قيادة حسنة .

وكانت الصعوبة الكبرى التى واجهها عبد الرحمن بن حبيب ، هى مشكلة الخوارج ، الذين كانت قواتهم قد تجمعت فى جبل نفوسة فى طرابلس ، وكان يتولى رياستهم زعيم خارجى ممن تلقوا تعاليم الخارجية الإباضية فى البصرة على شيخ كبير من شيوخ المذهب ، وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافى (نسبة إلى قبيلة من غرب اليمن تسمى المعافر) . هذا الرجل كان عالماً حقاً فى المذهب الإباضى وكان إلى جانبه عدد كبير من شيوخ المذهب أكبرهم عبد الرحمن ابن رستم .

نعود إلى تتبع أخبار عبد الرحمن بن حبيب لنقول : إن هذا الرجل كان يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه ولأفريقية ، لو أنه كان على شىء من الرزانة والحكمة والكفاية فى الأعمال الإدارية التى تصدى لها ، لكنه تجلى عن رجل غير ثابت ، سريع إلى الحركة ، غير واضح السياسة ، فنفر منه الناس سواء العرب أو البربر وتصدى له نفر من أنداده من العرب ، ووقعت الحروب بينهم . وكان يتولى قيادة جيش أخيه إلياس القائد الكبير ، وكان ولى عهده ، وهنا نرى عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع يغدر بأخيه إلياس فيعزله عن ولاية العهد ، ويقوم ابنه حبيباً مكانه فغضب إلياس ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بمقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية أخيه إلياس .

وهنا نجد أن حبيب بن عبد الرحمن يسير مع جماعات من البربر لحرب عمه ويقتله ويتولى مكانه ، ولم تدم ولايته طويلاً إذ تغلب عليه عمه عبد الوارث ، ففر حبيب إلى قبيلة كبيرة من البربر المستعربة تسمى « ورفجومة » وهى قبيلة طارق ابن زياد وكان يتزعمها عاصم بن جميل ، وهو ابن أخت طارق بن زياد فسار عاصم بمن معه من الخوارج الصفرية ، واقتحم القيروان وقضى على بنى حبيب وأقام حكماً خارجياً صفرياً فى البلد . ولكى يؤكد احتقاره لمذهب السنة دخل

رجالهم بخيلهم المسجد الجامع وربطوا خيلهم فيه . بذلك نجد أن أفريقية التي كلفت العرب إلى الآن جهوداً ضخمة في فتحها وإقرار أمورها ، انتهت بعد العناء إلى أن تكون مركزاً من مراكز الخوارج الصفرية .

هذا الموقف دفع الخوارج الإباضية المسيطرين على جبل نفوسة وناحية طرابلس ، إلى أن يسيروا بجموعهم إلى القيروان ليطردوا الصفرية منها ، بزعامة **أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري** . وتم لهم ذلك وانتقلت أفريقية من سلطان الصفرية إلى الإباضية . كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور وكان قد اتجه إلى جعل الدولة العباسية دولة السنة والجماعة ، فأمر واليه على مصر وهو **محمد بن الأشعث** بالمسير إلى أفريقية وإخراج الخوارج منها وتم له ذلك ، وعادت أفريقية إلى مذهب السنة . وفي الصراع بين الخوارج ورجال السنة وهم رجال الدولة العباسية ، قتل أبو الخطاب زعيم الخوارج الإباضية ، ففر الباكون بقيادة عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب الأوسط ، خارج الحدود العباسية لدولة بني العباس ، وانحاز نفر منهم إلى جبل نفوسة وسنسمع عنهم بعد قليل .
